هيلاسلاسي والحبشة

دكتور رأفت عنبي الشيخ

أستاذ مساعد بقسم التاريخ والمكتبات

الحبشة :

الحبشة تلك الأرض الهضبية التي تقع في شرق أفريقيا وتطل على البحر الأحمر ترجع تسميتها إلى ما تذكره بعض المصادر من أن إحدى القبائل العربية اليمنية التي عبرت البحر الأحمر قبل الميلاد بألف سنة مع غيرها من القبائل وكانت تسمى « الحبشات » ، وعندما تقدمت في الهضبة الحبشية واستقرت في المنطقة الشمالية منها أطلق عليها اسم « حابش » . ومن هنا جاءت تسمية الإقليم .

وجاء انتقال هذه القبائل لكى يختلطوا بسكان الهضبة الأصليين والذين ينتمون إلى الأصل الحامي ، وكانت نتيجة هذا الاختلاط فرض العادات والتقاليد العربية ، ومن نسل الفريقين كانت نواة الشعب الحبشى ذى الثقافة السامية والأصل الحامي .

وفي القرن الأول بعد الميلاد قامت مملكة أكسوم في الطرف الشمالى من الأرض الحبشية حيث كان يتركز فريق من السكان يمتون بصلة القربي إلى قبائل الدناكل والصوماليين التي تضرب في صحراء النوبة ، ولكن هذه المملكة مدت سلطانها إلى الجنوب حيث كان السكان خليطاً من الحاميين والزنوج الذين نزحوا إلى الأرض الحبشية من أعالى النيل .

وعندما ظهر الإسلام كانت هجرة المسلمين الأولى بدينهم بعيداً عن اضطهاد كفار قريش إلى الحبشة حيث كان ملكها المسيحى يتمسك بمسيحيته التي سادت المنطقة الشمالية من البلاد ، ومع ذلك رحب ملك الحبشة برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بكل احترام، بعد أن تبين له صدق الرسول الكريم واعترافه بالنبي عيسى عليه السلام وطهارة السيدة مريم العذراء .

ورغم بقاء سكان الجبال الحبشية على الوثنية ، واعتناق سكان الشمال للمسيحية فقد

انتشر الإسلام في المناطق الجنوبية وخاصة في أقاليم : « أمهرا » و « جود جام » و « شُوَا » ، كما انتشر الإسلام في الشرق والوسط نتيجة لغزو سكان الصومال المسلمين ، فاعتنقت إحدى قبائل « الحالا » الوثنية في القرن السادس عشر الميلادي وهي قبيلة « الأولو » الدين الإسلامي ، إلى جانب استيلاء القبائل المسلمة على ميناء مصوع والمناطق الساحلية .

ورغم أن بعض الأحباش اعتنقوا الرسالة المحمدية إلا أن ملوك الحبشة ظلوا على دين آبائهم ، ومع ذلك لم يمتد الفتح الإسلامي إلى هذه البلاد المسيحية التي ارتبطت كنيستها بكنيسة الكرازة المرقسية بالإسكندرية ، بل إن مطارنة الحبشة كثيراً ما كانوا مصريين لا يعرفون اللغة المحلية سواء كانت الأمهرية أو لغة العجيز الأصلية ، بل كانوا يؤدون واجباتهم الدينية باللغة القبطية أو اللغة العربية .

وعندما مد العثمانيون سيطرتهم على ملحقات السلطنة المملوكية في الحجاز واليمن عقب استيلائهم على مصر عام ١٥١٧ م ، مدوا سيطرتهم إلى سواكن ومصوع على الساحل الغربي للبحر الأحمر . وقد أطلقوا على هذا الجزء من أملاكهم اسم « ولاية الحبش » بإعتبار أنها تمثل مخارج بلاد الحبشة ، ووضعت هذه الولاية تحت إشراف والى جدة أى باشا الحجاز ، على أن يعين من جانبه قائمقام على كل من سواكن ومصوع (١) .

وعندما ضعف النفوذ العثماني على ساحل البحر الأحمر الغربي أواخر القرن السادس عشر نتيجة انشغال الدولة العثمانية بجبهات متعددة ، استعانت السلطات التركية بأحد الزعماء المحليين ليكون نائباً عنها في البر الساحلي أو « حرقيقو » وللمعاونة في أعمال الحكومة والإدارة بمصوع ، كما استعانت بزعيم محلي آخر في سواكن (٢) .

ورغم أن الدولة العثمانية لم تفتح الأراضي الحبشية إلا أن السلطان العثماني اعتبر الحبشة تابعة للدولة العثمانية ، واستند في ذلك إلى أمرين : —

أولا : حق فرض رسوم المرور على المسافرين والقوافل التي تدخل الحبشة والتي تخرج منها بحكم احتلال الدولة العثمانية لميناء مصوع منفذ الحبشة على البحر الأحمر والعالم الخارجي.

ثانياً : أن بطريرك الكرازة المرقسية في مصر هو الذى يعين مطران الحبشة الأمر ، الذي لا يتم إلا برضاء السلطة الزمنية ، أي بموافقة الباب العالى منذ أن خضعت مصر له عام ١٥١٧ م (٣) .

وعندما نجح إبراهيم بن محمد على في إخضاع الحجاز للدولة العثمانية بعد امتداد الدعوة الوهابية إليه عام ١٨١٨ م كافأه السلطان العثماني بتعيينه والياً على جدة وعلى إيالة الحبش . ورغم أنها لم تضم إلى الباشوية المصرية بل كانت باسم إبراهيم باشا ، فإن محمد على أراد ضم بلاد الحبشة تحت السيادة العثمانية ولم يمنعه من تحقيق ذلك سوى موقف إنجلترا .

ورغم أن اسم الحبشة ظل قروناً عدة سائداً إلا أن الملوك صاروا يأنفون من هذه التسمية ويتمسكون بالاسم الآخر وهو إثيوبيا ، وأما العاصمة فإنها انتقلت بعد أكسوم إلى مدينة جوندار شمالى بحيرة تانا ثم إلى مجدالا الواقعة على المنحدر الشرقي من الهضبة الحبشية ، ثم انتقلت خلال القرن التاسع عشر إلى مدينة أديس أبابا نظراً لضعف نفوذ الملوك في شمال البـــلاد .

ملك الملـــوك :

وكان اللقب الرسمي لعاهل الحبشة منذ بدء التاريخ المعروف للحبشة هو « ملك الملوك » ، والسبب في هذه التسمية أن « ملك الملوك » يتزعم عدة دويلات صغيرة يحكم بعضها ملوك ورثوا عروشها ، ويحكم البعض الآخر أمراء يؤدي كل منهم جزية سنوية لملك الملوك ، وهناك فريق من الحكام يسمى كل منهم بالرأس لا يستطيع مغادرة أراضيه إلا بإذن من ملك الملوك . ويتولى كل رأس قيادة الجنود الذين يعسكرون في أراضيه ، كما يتحمل نفقاتهم ، وعليه أن يجبى المكوس ويؤدي الجزية السنوية التي يفرضها ملك الملوك .

وخلال قرن من الزمان (١٧٧٠ — ١٨٧٠ م) دار الصراع على زعامة الحبشة بين الرءوس والحكام ، وخاصة بين رأس مقاطعة تيجرى الواقعة في شمال الحبشة الغربي ، ورأس ولاية أمهرا الذى يضفى حمايته على ملك الملوك ، وحاكم ولاية جوجام الواقعة إلى الجنوب من بحيرة تانا ، ورأس مقاطعة شوا الواقعة إلى الشرق من البحيرة .

وفي عام ١٨٧٢ ارتقى رأس تيجرى عرش الحبشة باسم يوحنا الرابع ، ولكن قوة منليك حاكم مقاطعة شوا أرغمت يوحنا الرابع على مهادنته والتحالف معه على أن يخلفه على العرش ، فلما قتل يوحنا الرابع أثناء اشتباكه بالمهديين أصبح العرش من نصيب منليك الذى كان ينتمى إلى إحدى بنات النجاشى داود أى أنه من سلالة الأسرة السليمانية الملكية .

واعتمد منليك على ابن اختـــه الرأس ماكونين حاكم هرر في كثير من أمـــور السياسة الخارجية .

زادت قوة منليك بعد أن هزم الإ يطاليين في موقعة عدوة عام ١٨٩٦ م فسارعت الدول الأوروبية إلى إيفاد مبعوثيها إلى أديس أبابا ــ ومعناها الزهرة الجديدة ــ التي بناها منليك منذ عام ١٨٨٣ م للامبراطورة واتخذها عاصمة ، وتنافست كل من إنجلترا وفرنسا وإيطاليا في التقرب للنجاشي ، إلى جانب الدولة العثمانية وروسيا ، واتسعت رقعة مملكته غرباً وجنوباً ، ودخل في صراع مع الزعيم الصومالى محمد عبد الله الشهير بالمجذوب .

وعندما توفي منليك عام ١٩٠٨ م ــ وكان ماكونين رأس مقاطعة هرر ومانجاشا رأس تيجرى قد توفيا قبله ــ ثارت الخلافات بين الامبراطورة ، والصبي ليج يسوع خليفة منليك ، فلما توجت الامبراطورة زاوديتو في ١١ فبراير ١٩١٧ م نودى في اليوم التالى بالرأس « ولدو جرجس » وصياً على العرش ، وقيل تعليلاً لذلك أن الرأس « تيفرى » بن ماكونين مازال حدثاً ولا يستطيع أن يحمل أعباء هذا الشرف العظيم ، فقبع الرأس تيفرى في مقاطعة هرر التي ولد بها ، وهو الذي صار فيما بعد الامبراطور هيلا سلاسى .

هيلاسلاسى :

وقد كان مولد هيلا سلاسى في عـــام ١٨٩١ م ، وهو ابن الرأس ماكونين حاكم هرر المتنور ، والذي كان حفيداً لملك شوا سلسلاسى Sahle Silassie ، ومن ثم فإنه ابن العم الأول للامبراطور منليك . وكان الرأس ماكونين قد مارس نفـــوذاً ملحوظاً على الأخير . وأما زوجة هيلا سلاسى ــ وايزيرو مانين Waizero Manen ، فكانت حفيـــدة للملك ميخائيل حاكم « وولو » وعـــلى هـذا فهـــي ذات صـــلة بليج يســـوع الامبراطور المخلوع . "Lij Yasu (4) .

وعندما توفى والده ــ ماكونين ــ في عـــام ١٩٠٧ تم تعيين الرأس تيفرى حاكماً على سيدامو . وبعد وفاة منليك أصبح له حكم هرر التي ظل يحتفظ به حتى عام ١٩١٦ . وبعد عزل ليج يسوع في ذلك العام اختير ــ تيفرى ــ وصياً على العرش . على أن هذا الاختيار لم يكن من الصعب فهمه ، منذ أن أعقب كل من الرأس كاسا Kassa « وديجازماش توى »

Dejazmach Toye الملك سلا سيلاسى Sahle Silassie في سلك النبـــالة والشرف . ولكن سادالاعتقاد بأن الاختيار ، الذى كان فيه فيتورارى هوبتا جورجيس Fitaurari Hopta ، وزير الحربية السابـــق ، والذى كانت لـــه الكلمة الأقوى، كان معنيـــاً بوجود شخص بأسرع وقت يمكن السيطرة عليه والذي يمكن أن يكون مقبولاً لدى مفوضيا ت الدول الأجنبية، والذى ليس قـــوياً بدرجة كبيرة بين زعماء البـــلاد . والذى يمكن أن يظل تحت سيطرة كبار الزعماء .

ولما مات وزير الحربية فيتورارى عام ١٩٢٦ م كان الرأس تيفرى قد استكمل أسباب القوة وزود جيشه بالأسلحة الحديثة وقضى على الرءوس الذين كانوا يسعون إلى اقتناص السلطة واحداً بعد واحد فدان له الجميع . وفي سبتمبر ١٩٢٨ م رغم أنه لم يكن له صوت مسموع في مجالس الحكم إلا أنه انتزع موافقة الامبراطورة زاوديتو على تتويجه نجاشياً Negus .

وكان النزاع بين الامبراطورة والوصى على العرش في عام ١٩٢٨ م قد أصبح خطيراً بدرجة كافية ليحدث التفكير لبرهة أن العداء يمكن أن ينفجر بين الطرفين ، ولكن حل المشكلة كان سلمياً ورائعاً . ففى أو حوالى ٢٦ سبتمبر خلعت الامبراطورة على الرأس تيفرى لقب ملك (نجاشى) وتوج ملكاً في السابع من أكتوبر .

وبوفاة الامبراطورة « زاوديتو » في أول أبريل ١٩٣٠ م أعلن تتويج الملك تيفرى مباشرة امبراطوراً ، وبعد مدة قصيرة صار لقبه هيلا سلاسى الأول (٥) . وشهد حفلات التتويج جميع الأمراء وأعضاء البعثات الدبلوماسية ، كما جاء دوق « جلوستر » نائباً عن أبيه الملك جورج الخامس لتقديم التهنئة للامبراطور . وبهذا صار هيلا سلاسى مطلق اليدين في شئون بلاده .

وكان هيلاسلاسى ميالاً إلى الأخـــذ بأساليب المدنية الحديثة ، ومنـــذ تعيينه وصياً على العرش عام ١٩١٦ م حاول أن يطبق أساليب الحياة الأوروبية العصرية ، ولكن أثناء وجود الامبراطورة كان يواجه باستمرار بمعارضة قوية منها ومن الزعماء المحافظين . وبالتدريج استطاع تقوية مركزه كلما سنحت الفرصة لذلك ، وقد نجح بالفعل في البدء بالاصلاح حتى من قبل أن يعلن تتويجه امبراطوراً .

وكان طبيعياً أن يبدأ هيلا سلاسى حياته بمناخ عسكرى ، ولكنه كان عاجزاً بطبيعة الحال بسبب الحظر الذى فرضته على استيراد الأسلحة كل من إنجلترا وفرنسا وإيطاليا . ومع ذلك فقد استقدم بعثة عسكرية بلجيكية لتبدأ في تدريب الجيش الأثيوبي ، ووضع أسس خدمات جوية ، وأخذ على عاتقه مسألة الاتصالات في البلد . وفي يوليو ١٩٣١ م أعلن عن إصدار دستور ، وفي شهر نوفمبر من نفس العام افتتح أول دورة للبرلمان (٦) . وجاء في خطبة العرش أمام الرءوس وأعيان البلاد : إن الأباطرة من قبل كانوا يحكمون الحبشة حكماً مطلقاً بوصفهم آباء الشعب ، ولكن الحال تغير الآن ، فلابد أن تضطلع الأُمة بجانب من مهام الحـــكم .

ومع وجود دستور وبرلمان إلا أن زمام السلطة الفعلية كان في قبضة هيلا سلاسى الذى ظل يعتمد على مشورة ذوى الرأي من الأجانب ، وإن كان قد حقق وحدة الامبراطورية وحيث أصبحت الحكومة المركزية وطيدة الأركان تدين لها الأقاليم كلها بالطاعة والولاء بعد أن تولى شئونها رجال من أتباع وأنصار هيلا سلاسى .

لقد تقلد الامبراطور عدة أوسمة بريطانية ، فقد منح وسام G.C.M.G. عندما تقلـــد منصب الوصى عـــلى العرش عام ١٩١٦ ، ووسام G.C.B. ودرجة L.L.D. أثنـــاء الزيارة التي قام بها الامبراطور لإ نجلترا عام ١٩٢٤ م ، ووسام سلسلة الأمر الملكي الفيكتورى Chain of the Royal Victorian Order بمنـــاسبة زيارة بعثـــة دوق جلوشستر للحبشة في نوفمبر ١٩٣٠ .

ونتيجة لما عرف بحادث « وال وال » أشرف هيلا سلاسى بنفسه على المعارك بين الحبشة وإيطاليا . وتفصيل ذلك أن لجنة إنجليزية حبشية مختلطة قامت على رأس ستمائة جندى من الأحباش لرسم الحدود بين الصومال البريطاني والأراضي الحبشية ، وكان الإ يطاليون قد توغلوا من قبل في هذه المنطقة لكثرة الآبار بها وأنشأوا فيها عدة نقط حصينة ، فلما وصلت اللجنة إلى المنطقة اعترض الإ يطاليون وأرسلوا عدة طائرات حومت فوق المكان على سبيل الارهاب والاستفزاز فآثر أعضاء البعثة السلامة وانسحبوا من منطقة الآبار ، غير أن اللجنة رأت أن تترك في المنطقة فصيلة من الجند حتى لا تثور ثائرة أهالى أوجادين إذ يعتقدون أن في هذا تسليماً بحقوق الإ يطاليين في الآبار والعيون . وفي غمرة هذا الجو نشبت المعركة

بين إيطاليا والحبشة في ٥ ديسمبر ١٩٣٤ م .

قاد هيلا سلاسى المعارك بنفسه من أكتوبر ١٩٣٥ إلى مايو ١٩٣٦ م وفي أول مايو ١٩٣٦ م وعقب وقوع الهزيمة بقواته عند الحدود الشمالية اعتزل هيلا سلاسى توجيه دفة الأُمور ، وفي الثاني من نفس الشهر غادر أديس أبابا إلى بيت المقدس ، حيث منح ملاذا . ومن القدس ذهب إلى إنجلترا حيث وصل في اليوم الثالث من شهر يونيو . كما أنه زار جنيف في نفس الشهر ليسمع الجمعية العامة لعصبة الأُمم صوت بلاده المظلومة . ولكنه منذ عودته من جنيف بقى مقيماً بالمملكة المتحدة هو وأعضاء أسرته وبعض الخلصاء من أنصاره (٧) ، إلى أن عاد إلى بلاده في ربيع ١٩٤٢ م بعد أن هزم الطليان في معارك الحرب العالمية الثانية .

هذا هو هيلا سلاسى الذى قاد سفينة الحبشة ضد عوامل التخلف داخل البلاد وضد مطامع الدول الأوروبية التي إتخذت من شرق أفريقيا أحد مجالاتها ، والذى قاد المعركة ضد إيطاليا حتى استعادت الحبشة قوتها ووحدة أراضيها بعد الحرب العالمية الثانية وهزيمة الطليان فيها .

أوجادين واريتريا :

وهذا هو هيلا سلاسى الذى انتهز فرصة هزيمة إيطاليا في الحرب العالمية الثانية وفقدها لمستعمراتها في كل مكان لكي يحل محلها في الصومال الغربي وفي إقليم أرتيريا ، ويسعى إلى السيطرة على هذه الأراضي العربية التي تسعى لتقرير مصيرها .

هذا هو هيلا سلاسى الذى أدار السياسة الحبشية لكي تظل جاثمة على صدر إقليم أوجادين الصومالى والذى أنكر على شعب الإ قليم رغبته في الانضمام مع اخوانه في الأصل والدين في الوطن الأُم الصومال ، والذى وضع اللبنة الأولى للصراع بين الحبشة والصومال حول هذا الإ قليم ، ذلك الصراع الذى لا يعلم إلا الله مداه لأنه صراع بين حق الصومال وباطل الحبشة .

وهذا هيلا سلاسى الذى جاهد بعد الحرب العالمية الثانية للإستحواذ على إقليم أرتيريا وضمه إلى الحبشة . ورغم أن الجمعية العامة للأُمم المتحدة إتخذت قراراً في ٢ ديسمبر ١٩٥٠ م بأن تصبح أريتريا وحدة متمتعة بالحكم الذاتي في إطار إتحاد مع أثيوبيا تحت سيادة التاج الأثيوبي ، وأن يكون للحكومة الأريترية سلطات تشريعية وتنفيذية وقضائية في حقل الشئون

المحلية (٨) ، فإن أثيوبيا هيلا سلاسى سعت خلال السنوات العشر من ١٩٥٢ إلى ١٩٦٢ م إلى إلغاء الحكم الفيدرالى عن طريق إجراءات متتالية كانآخرها الإ علان المؤرخ في ١٤ نوفمبر ١٩٦٢ م بإنهاء الحكم الفيدرالى وإعتبار أريتريا ولاية إثيوبية (٩) .

هذا هو هيلاسلاسى الذى واجه جبهة التحرير الأريترية وغيرها من حركات التحرير الاريترية التي بدأت نشاطاتها منذ عام ١٩٥٨ م بالقسوة والتنكيل ، والتي بدأت حين هاجم الثوار آنذاك أحد المخافر الحكومية في أقصى حدود أريتريا الغربية الملاصقة للسودان ، والتي صارت تسيطر الآن على حوالى ٨٠ ٪ من أراضى الإ قليم .

هذا هو هيلا سلاسى الذى لم يفهم طبيعة الحركة التحررية في أريتريا بل نظر إليها على أنها مجرد نوع من « الشفتا » أي قطاع الطرق الجبلية ، وحاول أن يحبسها عن سمع العالم كله ، ولكن دون جدوى .

وأخيراً هذا هو هيلا سلاسى الذى أطاحت به ثورة عسكرية في اثيوبيا ذاتها عام ١٩٧٤م إتخذت سياسة اشتراكية على النقيض من السياسة التي ظل هيلا سلاسى يسير على منوالها . فبينما كان الامبراطور العجوز يتجه نحو قبلة الغرب (إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية)، جعل الحكام العسكريون قبلتهم نحو الشرق وخاصة نحو الاتحاد السوفيتى .

ورغم أن الحبشة دولة أفريقية « وبحر أحمرية » في نفس الوقت فقد إتخذ الامبراطور العجوز — ومن بعده الحكام العسكريون — سياسة غير ودية نحو الأقطار العربية في أفريقيا وآسيا فلم تكن هناك علاقات قوية بين الحبشة وكل من مصر والسودان بل أن الحبشة هيلا سلاسى نظرت إلى كل تقارب مصرى سوداني بارتياب ، كما لم تكن الحبشة تنظر بارتياح إلى قوة المملكة العربية السعودية والجمهورية العربية اليمنية ونشاط كل منها في البحر الأحمر . ومن ثم زادت وقوت الحبشة من علاقتها باسرائيل وأعطتها تسهيلات بحرية في الجزر الأريترية لتكون قريبة من مدخل البحر الأحمر الجنوبي الذى تسيطر عليه أقطار عربية .

وعلى هذا فقد نظر حكام اثيوبيا الجدد العسكريون الاشتراكيون إلى دعوة الرئيس جعفر محمد نميرى رئيس جمهورية السودان بعقد إجتماع يضم الدول المطلة على البحرالأحمر ، بارتياب فلم تشارك الحبشة في مؤتمر تعز الذى عقد في مارس١٩٧٧م بتلك المدينة اليمنية (١٠)

الهوامش والمصـــادر

(١) محمد رفعت رمضان : وضع السودان في نطاق العلاقات بين مصر والدولة العثمانية حتى ١٨٦٣ م ص ٢٦ .

(٢) د . السيد رجب حراز : إرتريا الحديثة ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٤ ص ٣٢ ــ ٣٣ .

(٣) نفس المصدر ص ٣٤ ــ ٣٥ .

(4) F.O. 401, confidential (15544) No. 37/18 [J2157/2157/1]: Records of Leading personalities in Abyssinia (As amended by Addis Ababa Despatch No. 54 of March 18, 1937, Received May 4). The Emperor Haile Silassie 1, G.C.B., G.C.M.G., G.C.V.O., LL.D.

(5) Ibid.

(6) Ibid.

(7) Ibid.

(٨) عثمان صالح سبي : تاريخ أرتيريا ص ــ ٢٠٢ ــ ٢٠٣ .

(٩) نفس المصدر ص ٢١٩ .

(١٠) بحث بعنوان أمن البحر الأحمر بين ميثاق جدة عام ١٩٥٦ م ومؤتمر تعز عام ١٩٧٧م. مقدم من د . رأفت الشيخ إلى الاسبوع العلمي الثالث لسمنار التاريخ الحديث بجامعة عين شمس .

البحر الأحمر
مصوع
أسمرة
إرتيريا
تيجري
جوندار
تانا
السودان
وولو
جيبوتي
خليج عدن
جوجام
النيل الأزرق
الصومال
شاوا
أديس أبابا
اللبابور
هرر
وليجا
كافا
إلبابو
السودان
كمرفا
سيدامو
الصومال
كيمبتا
الحبشة

الحبشة